بسم الله الرحمن الرحيم

س: لو عاد بك الزمان إلى فترة الشباب .. ما الذي ستعمله فيها الآن؟!

ج: سؤال هو المستحيل بعينه، ولكن لماذا لا نساير صاحبه ونتخيل معه أن الزمان — بمعجزة ما– قد استطاع أن يعود بنا إلى فترة الشباب أو بالأحرى استطاع أن يعيد إلينا الشباب، ونحن في قلب هذا الواقع المثير بمستجداته وثقافاته وبتطوره العلمي المدهش بمآسيه وجرائمه التي تتضاءل عندها جرائم ومآسي كل العصور.

وبالنسبة لي سأشترط —إن كان ذلك ممكناً– أن أعود إلى الشباب أو أن يعود لي شبابي مع الاحتفاظ بكل ما اكتسبته عبر السنوات الماضية من خبرات ومعرفة بالناس والواقع حتى لا أبدأ من الصفر واجد نفسي واحداً من شباب اليوم الحائر الضائع بين مفترق طرقات شتى ، ومنعطفات متعددة بتعدد الثقافات والاتجاهات التي تجتاح العالم وتسعى كل منها إلى الفوز بنصيب من هذا الشباب الحائر وإلحاقه بمسار ما عن رضى تارة وعن تقليد وإكراه تارات. وفي حالة قبول الشرط المقترح من جانبي فإنني سأكون سعيداً بالمحافظة على ما اكتسبته في سنوات الصبا والشباب والكهولة فضلاً عما سوف يتوفر لشبابي الجديد من قدرات على اكتساب معارف جديدة أستطيع من خلالها جميعاً أن اكتشف الطريق الذي يتناسب مع رغبتي واحتياجات وطني الكبير ، فلا أريد أن يرجع لي شبابي لكي أعيش في قطر صغير ينتمي إلى مجموعة من الأقطار الممزقة الواقعة تحت مطرقة التجزئة وسندان العدوان الأجنبي، والذي يُشكل

الصهيونية رأس مقدمة الحرية منه، هذا الكيان الصهيوني الذي يغتصب قطـــراً عربياً، ويمارس فيه كل يوم أشكالاً من التعذيب والتدمير ، لم نكن في شبابنا نتصور- مجرد تصور- أنها سوف تحدث وأننا سنكون مرغمين على أن نتقبلها في صمت يشبه صمت القبور.

أعود فأقول: إنه في حالة قبول اشتراطي السابق، فإن أول ما ســـوف أفعله أن أكسر الحاجز المنيع القائم بيني وبين السفر خارج مـــدينتي الحبيبـــة "صنعاء" ، وأن أبدأ بالتخطيط لرحلة طويلة حول العالم أزور خلالهـــا كـــل الأقطار التي سبق لي زيارتها من قبل، وكل الأقطار التي لم أزرها بعـــد، وأن أتوقف طويلاً عند كل قطر من هذه الأقطار التي زرتها لكي أرى معالم التغيير التي طرأت عليها، وهل تسير إلى الأمام أم إلى الخلـــف، ومـــاذا صـــنع الله بالشعارات والأحلام التي كان الشباب قديماً يرفعونها للخلاص من قبضة الفقر والتمايز، وأن أتوقف طويلاً أيضاً عند الأقطار التي لم أزرها من قبـــل لكـــي أعرف إلى أين تسير، وربما استفدت فكرة من هنا وتجربة من هناك تـــوهلني لمرحلة العمل في شبابي الجديد .

قد تطول تلك الرحلة بعض الشيء ، ولكنها ستكون أكثر من مفيـــدة لي في رسم ملامح الدور الذي أعد نفسي للقيام به، وهو دور ثقافي اجتماعي خالٍ من أي دور سياسي لأن السياسة في صورتها العربية ما دخلت في شيء إلا وأفسدته، وجعلت خيره شراً ، ونقاءه سواداً لما تتمتع به السياسة العربية من تقلبات زئبقية في المواقف ،ومرونة للأعداء تصل في غالب الأحيـــان إلى درجة الانبطاح دون مبرر ولا هدف. وسيكون أول مشروع أتقدم به بعـــد جولتي الشبابية حول العالم خاص بإعادة النظر في أوضاع التعليم على مستوى الوطن العربي بأكمله لا في قطر واحداً ، ومجموعة أقطار؛ لأن إصلاح التعليم

لا يمكن أن يتم في بلد عربي، ويتخلف في بلد عربي آخر، فقد أثبتت التجارب التي مررنا بها طوال القرن العشرين لأنه من المستحيل أن يرتقي، أو يتقدم قطر عربي دون بقية الأقطار ، ومشروع إصلاح التعليم العربي الذي سأتقدم به لا ينطلق من الدعوة الأمريكية، أو يتجاوب مع ما تبشر به الدولة العظمى من إصلاحات سياسية وثقافية؛ ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وإنما يأتي من منطلق عربي إسلامي، ومن موقع الحرص على أن تأخذ أمتنا العربية أولاً ، والإسلامية ثانياً بأسباب التقدم الحقيقي، وأن تمسك بزمام المبادرة لإصلاح ما أفسدته الاجتهادات الفاشلة، علماً بأن هذه الأمة قد تخلفت كثيراً لأسباب وعوامل داخلية وخارجية يصعب حصرها . وكان تخلف هذه الأمة سبباً رئيساً في تفتتها ووقوعها في براثن الاحتلال المباشر وغير المباشر .

وإذا ما تحقق لمشروعي النجاح، فإنني سأتبعه بتفاصيل تتعلق بإعداد الجيل الذي لا يكفي أن يتلقى تعليماً منتظماً في شتى العلوم والمعارف، بل لابد أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم في جميع المراحل من رياض الأطفال إلى ما بعد الجامعية، مع تدريس وإتقان لغة أجنبية أو أكثر للإفادة مما وصل إليه العالم من تطور في مجال التقدم العلمي، وحبذا لو كانت اللغة المختارة غربية وشرقية ، من الغرب الإنجليزية أوالفرنسية أوالألمانية ، ومن الشرق اليابانية أو الصينية .

يضاف إلى ما سبق إعداد الجيل الجديد إعداداً صحيحاً وسليماً وتعويده على أن يصحو باكراً مع أول أضواء الفجر بعد أن يكون قد نام باكراً غير مهتم بما تقدمه الفضائيات من عبث فارغ يسرق الوقت والنظر ويبدد الطاقة فيما لا يفيد، وأن يبدأ نهاره بالتمارين الرياضية والتدريبات الفروسية ، كل فئة بحسب قدراتها العمرية، فالواضح المشاهد أن الأجيال الجديدة تذهب إلى

المدارس لتلقي الدروس نصف نائمة نصف يقظانه، وأنها تشير بأجساد هزيلة أو مترهلة، وأن الدولة لا تسهم في إعداد الغذاء الجيد في وجبة أو وجبتين للتلاميذ والطلاب على السواء لتنموا أجسادهم نمواً طبيعياً سليماً وتكون قادرة على تحمل مسئولية المستقبل بأجساد سليمة وعقول سليمة . ولعل كثيراً من التصرفات المتشنجة غير المسئولة لبعض الشباب قد تكون ناتجة عن اختلال في وظائف الجسد ينتج عنها فيما بعد اختلال في وظائف التفكير .

إن إعطاء هذا الجانب من حياتنا اهتمامنا الأكبر هو الواجب الذي ينبغي أن نسعى إليه، وأن يكون الهدف الأسمى في زمن جديد مخالف لكل ما توقعنا وألفنا، ومالم نعمل جميعاً على تنفيذ مشروع كهذا والالتزام به تجاه الحاضر والمستقبل؛ فإن كل جهودنا الأخرى محكوم عليها بالفشل، والفشل الذريع.

لقد بدأت حياتي مدرساً في مدرسة ابتدائية وفي منطقة نائية، وكان عمري لا يتجاوز السادسة عشره، وعرفت - يومئذ- كيف أتعامل مع مستويات من التلاميذ الصغار الذين يشبهون العجينة اللينة الطرية القابلة لصنع أي شكل. كانت الإمكانات محدودة ، والمنهج يقوم على تدريس القرآن الكريم ونماذج من الشعر العربي مع الخط والإملاء وأوليات المعارف في "الحساب" ، كان الأطفال القرويون يتحرقون شوقاً إلى التعليم وإلى استيعاب كل ما يقدم إليهم. وكان صفاء عقولهم ونقاؤها يشجعني وزملائي على أن نبذل أقصى الجهود لإعطائهم أفضل ما لدينا ، ولم يكن لدينا في ذلك الحين سوى القليل بالنسبة لمناهج التعليم الحديث والرياضيات على وجه الخصوص.

ذلك ما سوف أعمل للمجتمع لو عاد لي شبابي، أما ما سوف أعمله لنفسي، فإنني سأعمل على تحقيق بعض الأحلام التي حالت ظروفي الأولى

دون تحقيقها، ومنها دراسة الفن التشكيلي فقد كنت منذ الطفولة الباكرة أهوى الرسم، وحتى نهاية المرحلة المتوسطة في دراستي كانت هوايتي تتركز على هذا الفن، و لم يكن إقبالي على قراءة الشعر – حينئذ– ثم كتابته إلاَّ بدافع حبي لفن التصوير على اعتبار أن الشعر رسم بالكلمات –كما يقولون– وقد حالت ظروف التخلف المريع دون تحقيق هذا الحلم إذ لم تكن في البلاد جامعات أو معاهد ، وكانت الفنون بأشكالها المختلفة من المحرمات، وعندما تغيرت أحوال البلاد كانت الفرصة سانحة للالتحاق بإحدى كليات الفنون الجميلة في مصر، لكنني كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به مع الشعر ، وكان عهدي بالفن قد انقطع بالإضافة إلى أن الاشتغال بفن الرسم كان حتى وقت قريب غير مرغوب فيه، ولا إقبال عليه.

ومن هنا ، فلو أعاد لي الزمان شبابي لسارعت إلى الالتحاق بأقرب كلية للفنون الجميلة في محاولة لتحقيق حلم جميل عاش معي أحلى سنوات الطفولة، ورافقني إلى بداية الشباب . وهذا لا يعني أنني سوف أتخلى عن كتابة الشعر بعد هذه الفترة الطويلة من المعايشة مع فن هو الأول في تاريخ الأمة العربية التي أنتمي إليها . وربما أتاح لي تجدد شبابي الفرصة لتحقيق حلم آخر هو الاقتراب من فن السرد، وكتابة الرواية هذا النوع من الإبداع الذي صار يسترعي اهتمام العالم أكثر من الشعر، ربما لأن النفس الإنسانية المرهقة صارت حريصة على تتبع التفاصيل الدقيقة و لم تعد تكتفي بتلك الومضات التي يرسلها الشعر عبر تكثيف المعنى واختزال الصور . وسيكون لدي من الوقت ما يكفي لإطالة النظر في الآداب والفنون الشرقية التي تجاهلناها واتجهنا بكل قوانا إلى الثقافة الأوروبية والغربية عموماً ، ونسينا أن نقترب من كنوز هذا الشرق الذي ننتمي إليه جغرافياً وروحياً حتى بعد أن تمكن من تحقيق

نهضة علمية معاصرة نجحت إلى أبعد مدى في منافسة الغــرب، وفي تهديــد مركزه الاقتصادي والعلمي .

وإذا كنت قد استرسلت بعض الشيء في وصف ما سوف أعمله إذا عاد لي شبابي، فإنني لم أتعرض بعد لقضية كان ينبغي أن تكون الإشارة إليها في بداية هذا الحديث، وأعني بها أن لا يكون القبول أو الموافقة على أن يعــود المرء إلى شبابه بعد أن يكون قد وصل إلى أبواب الشيخوخة ؛ وهــو أمــر مستحيل – إلاّ أن إمكانية حدوثه ولو في الخيال يتطلب شجاعة لا أظــن أن أمثالي يمتلكونها إذ سيكونون مضطرين إلى التعامل مع جيل أو أجيــال مــن الشباب يختلف ثقافة وموقفاً وأحلاماً عن الأجيال التي عاصروها وتعــاونوا معها . ويلاحظ أن أجيال الشباب الحالية ليست لها أو بالأصح ليس لغالبيتها من الأحلام والطموحات والاهتمامات الوطنية والفكرية ما كــان لأجيــال الشباب في زماننا . كما أن هذه الغالبية من الشباب تهوى من الفنون أردأها وإقبالها على الآداب يكاد يكون ضعيفاً أو معدوماً ، وهو - مثلاً- لا يطيــق سماع فنان كبير كمحمد عبد الوهاب- أو فنانة كبيرة كأم كلثوم ، ويكــاد يتخلى عن صوت فيروز وهو الأحدث في سلسلة الإبداع الغنائي العربي. كما أن هذا الجيل – في عالم الكتاب- لا يقرأ لطه حسين ولا يعرف شيئاً عــن توفيق الحكيم أو العقاد ، ويحيى حقي ، وزكي نجيب محمود، وغيرهــم مــن أعلام الكتابة المعاصرة ، وأظنه لا يدري من هو المتنبي أو أبو تمام ، ولا يعرف شيئاً عن الشريف الرضي ، وأبي العلأ المعري، فضلاً عن شعراء المعلقات. ولا عن الكتّاب العظام في تاريخنا القديم أمثال الجاحظ ، وأبي حيان التوحيــدي، وغيرهم ، إنه جيل كسول يعيش على قشور الثقافة الحديثة، ولا يمتد بصــره بعيداً إلى العصور الذهبية للإبداع العربي، ومن هنا فكيــف لي إذا رجــع لي

شبابي أن أتعايش مع هذا النوع من الشباب ، وما اللغة أو الاهتمامات المشتركة التي ستجمع بيني وبينه . وهل ستقتضي عودة الشباب نسيان ما كنت قد تحصلت عليه من معارف لكي أكون قادراً على التعايش مع غالبية شباب اليوم والقبول بالهبوط إلى مستوى أذواقهم . وهنا يحضرني بيت من الشعر العربي القديم يمكن الاستدلال به على نحو من الإنحاء ، لتحديد ملامح الوضع الذي سأكون فيه حين يعود لي شبابي وأكون مضطراً إلى معايشة جيل لست منه، والبيت لشاعر يخاطب نفسه قائلاً :

إذا ذهب القوم الذي أنتَ منهمو
وخُلِّفتَ في قومٍ فأنتَ غريبُ .